الدلالة اللّغوية والثقافة المعاصرة التأثُّر والتأثير

د. خليل عبدالله عجينه

موضوع البحث ومنهجه

"اللّغة أصوات يُعبّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم" (ابن جنّي ،٨٧،٢/١) ، وهي تدلُّ على الحياة الفعليّة من ناحية أنَّ لغة كلّ أمّة في كلّ عصر مظهر من مظاهر عقلها، لذا فإنّها تعكس ثقافة مجتمع ما، والتي هي مجموع المعارف والعقائد والأفكار والأخلاق والمفهومات والسلوكيّات التي توجّه أفراد المجتمع وتبني قناعاتهم وتُحرّكهم في مُختلف ميادين الحياة عملاً وتقاعسًا، إبداعًا وتقليدًا، سيادة وتبعيّة، أصالة وحداثة، تطوّرًا وتخلّفًا، ومن جهة أخرى تُظهر كيان هذا المجتمع وتبرز صورته.

وإذا كانت اللّغة نظامًا من العلامات التي تتكوّن من ألفاظ ومفهومات تربطها علاقة ائتلاف، عرفنا أنّ العلاقة بين لغة مجتمع ما وثقافته علاقة تلازم لا تنفك وعلاقة تأثّر وتأثير لا تبرح؛ ذلك لأنّ هذه المفهومات هي الصور الذهنيّة التي تختزن ثقافة مجتمع ما والتي يُعبّر عنها باللّغة، وإنّ التغيّر اللغويّ يتوقّف على مدى التغيّر الثقافيّ الذي بدوره يؤثّر في اللّغة؛ لأنَّ الناس يعيشون تحت رحمة اللّغة - كما يصفهم "سايبر" - التي اتّخذوها وسيلة للتفاهم في مجتمعهم.

وهذا البحث يُسلّط الضوء على التغيّر الدلاليّ لكثير من الألفاظ اللّغوية في مجتمعنا المعاصر نتيجة عوامل كثيرة، الأمر الذي كان له تأثير في الثقافة المعاصرة التي باتت مُختلفة إلى حدّ ما عمّا كانت عليه، فأصبحت تُعبّر عن صورة مشوّهة ومشوّشة للمجتمع العربيّ في أذهان أبنائه وغير أبنائه، ومن جهة أخرى أثّر في الاستعمال اللغويّ للألفاظ المتغيّرة دلالاتها.

فإنّ أصالة البحث تكمن في ما يلي:

- انطلاق البحث من التنظير اللغويّ في ما يتعلّق بالعلاقة بين ألفاظ اللغة ودلالاتها والتغيير الذي يطرأ عليها وأسبابه وعوامله وفق ما درسه القدامى والمحدثون، سعياً إلى تطبيق ذلك على ألفاظ مخصوصة في واقعنا اللغويّ المعاصر مثل: " الإرهاب"، "والخلافة" ، و"الحريّة الفكريّة"، و"المقاومة"، و"النظام"، وغيرها من الألفاظ التي لها علاقة وثيقة في بناء الثقافة العربيّة اليوم، وهذا لم يتناوله أحدٌ من الدارسين المعاصرين.
- استنتاج تأثير هذا التغيّر الدلاليّ في الاستعمال اللغويّ نفسه في ما صنّفتُهُ في أربعة أوضاع: الإبراز اللغويّ، والقصور اللغويّ، والحظر اللغويّ، والاتساع الدلاليّ.
- فتح الآفاق أمام الدارسين والباحثين في مجال علم الدلالة من خلال طرح موضوعات لغويّة معاصرة من شأنها أن تخدم المنهج الوصفيّ التطبيقيّ في دراسة اللغة.

يتّبع البحث المنهج الوصفيّ التحليليّ حيث ينطلق من توضيح العلاقة بين اللّغة والثقافة ثمّ يعرض لتأثير التغيّر الدلاليّ في الاستعمال اللّغويّ المعاصر.

اللّغة والثقافة

عرّف ابن جنّي (٣٩٢ هـ) اللّغة تعريفًا دقيقًا يُعدّ من أقدم التعريفات وأشهرها في التراث اللّغويّ، وليس عجيبًا أن يسبق هذا العالمُ الفذّ علماءَ اللّغة المُحدثين في تعريف اللّغة ذلك التعريف الذي يجمع فيه أمورًا أساسيّة اتّفق عليها المحدثون في تعريفاتهم، وإن اختلفوا في ما بينهم في نواحٍ أخرى.

يقول ابن جنّي في الخصائص "أمّا حدّها فأصواتٌ يُعبّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم" (ابن جنّي، ٨٧/١، ٢). ففي هذا التعريف الموجز أربع حقائق تتّصل باللّغة وتُبيّن خصائصها:

١- طبيعة اللّغة أنّها أصوات.

٢- وظيفة اللّغة أنّها وسيلة تعبير وأداة اتصال.

٣- علاقة اللّغة بالمجتمع أنّها نظام دلاليّ

اجتماعيّ يُعبّر عن جماعة ما.

٤- علاقة اللّغة بالثقافة والفكر أنّها تعبير عن مجموع المعارف والعقائد والأفكار والميول والحاجات والأخلاق والمفهومات والسلوكيّات وغير ذلك ممّا اختصره التعبير بلفظ "أغراضهم".

ولا يختلف تعريف ابن خلدون (٨٠٨ هـ) عن تعريف ابن جنّي السابق، إذ يرى "أنّ اللّغة في المتعارف هي عبارة المتكلّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل إنسانيّ ناشئ عن القصد بإفادة المتكلّم. فلابُدَّ أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كلّ أمّة بحسب اصطلاحاتها" (ابن خلدون، ٥٤٦،٥)، ومن الملاحظ أنَّ تعريف ابن خلدون هذا أضاف حقيقة خامسة إلى الحقائق التي جاءت في تعريف ابن جنّي وهي القدرة اللّغوية إذ هي "نتاج ثقافيّ وفعل صُنع تصير ملكة قائمة عند متكلّمها، أي تصير مقدرة على التكلّم بعد أن يكتسبها الإنسان فتستقيم في ذاته أداة تعبير وتواصل". (ميشال زكريا، ١٤،٧).

وجاء علم اللغة الحديث ليؤكّد ما ذهب إليه علماؤنا القُدامى الذين وضعوا حدودًا دقيقة للّغة، فها هو "دي سوسير" (١٩١٣م) - أبو علم اللّغة الحديث كما يُلقب- يُعرّف اللّغة بأنّها "نتاج اجتماعيّ لملكة اللسان ، ومجموعة من التقاليد الضروريّة التي يتبنّاها مجتمع ما ليُساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة". (دي سوسير، ٢٧،٨).

من الواضح أنَّ "دي سوسير" في تعريفه هذا يرّكز على حقيقة مُهمّة من الحقائق المرتبطة باللّغة وهي أنّ اللّغة اجتماعيّة ليست وظيفة الفرد المتكلّم ولكنّها نتاج اجتماعيّ، "وهي هذا النظام المختزن في ذهن كلّ فرد من أفراد الجماعة اللّغوية، ومن دون هذا النظام لا يستطيع الإنسان أن يتكلّم أو يفهم". (محمود جاد الرب ٨٧ ، ١).

ويعرّف "أندريه مارتينه" (١٩٩٩م) اللّغة بأنّها "أداة تواصل تُحلَّل وفقها خبرة الإنسان بصورة مختلفة في كلّ تجمّع إنسانيّ عبر وحدات تشتمل على محتوى دلاليّ وعلى عبارة صوتيّة". (نقلاً عن ميشال زكريا، ١٤ ، ٧).

ومن الملاحظ أنّ تعريف هذا العالم الفرنسيّ لم يضف شيئًا جديدًا إلى التعريفات السابقة من حيث إنّ طبيعة اللّغة قائمة على وحدات صوتيّة تشتمل على دلالة، وهي وسيلة تواصل تختلف من مجتمع إلى مجتمع.

ولكنّ تعريفات العلماء لم تقف عند ذلك الحدّ، بل كانت أكثر تفصيلاً وغورًا في علاقة اللّغة بالفكر والثقافة، فيرى "سابير"(١٩٣٩ م). أحد رواد علم اللّغة الحديث في القرن الماضي - "أنّ اللّغة هي التي تجعل مجتمعًا ما يتصرّف ويُفكّر بالطريقة التي يتصرّف ويُفكّر فيها، وأنَّ ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلاّ من خلال لغته، وأنّ تلك اللّغة بمفرداتها وتراكيبها محدودة في ذاتها، ومحدودة لنظرة المجتمع الذي يتكلّمها للعالم وللحياة... وهو يرى أنّ البشر في واقعهم يعيشون تحت رحمة تلك اللّغة المعيّنة الّتي اتّخذوها وسيلة للتفاهُم في مجتمعهم". (نايف خرما، ١٨٠، ٤) ويُعرّفها أيضاً في موضع آخر بعبارة أكثر دقّة فيقول: "إنّ اللّغة دليل رمزيّ على الثقافة". (نقلاً عن مصطفى غلفان، ٥٦ ، ١٠).

وقد تأثّر به العالم "بنيامين وورف" (١٩٤١ م) الذي يرى أنّ اللّغة ليست مجرّد وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل هي التي تُشكّل تلك الأفكار، ويرى "أنّنا نفهم الطبيعة أو العالم بموجب الخطوط التي ترسمها لنا لغاتنا القوميّة". (نايف خرما، ١٨٠، ٤).

نستطيع أن نخلص استنادًا إلى ما سبق أنّ اللّغة هذه الظاهرة الإنسانيّة المُعقّدة نظامٌ اجتماعيّ وظيفته الاتصال والتواصل والتعبير عن ثقافة مجتمع ما والتي هي مجموع المعارف والأفكار والعقائد والأخلاق والمفهومات والسلوكيّات التي توجّه أفراد المجتمع وتبني قناعاتهم، وتُحرّكهم في مُختلف ميادين الحياة عملاً وتقاعسًا، إبداعًا وتقليدًا، سيادة وتبعيّة، أصالة وحداثة، تطوّرًا وتخلّفًا.

وهذا ما يُعبّر عنه الدكتور محمد عبد العزيز فيقول: "فالفكر والثقافة يؤثّران في اللّغة، واللّغة تعكس الفكر والثقافة وتوجههما، فإنّ ثمّة اعتماداً وتأثيراً متبادلاً في ما بينهما". (محمد، عبدالعزيز، ٢١٩،٩).

الدلالة اللّغوية والثقافة

إنَّ قضيّة الدلالة اللّغوية من القضايا التي بحثها علماء اللّغة القدامى والمُحدَثون بحثًا وافيًا، لما في ذلك من أهميّة في إبراز الوظيفة الأساسيّة للّغة؛ وهي التعبير عن المعاني وإظهارها، ولسنا في هذا البحث بصدد عرض أقوال العلماء وآرائهم المتباينة حينًا والمتوافقة حينًا آخر في هذه القضية، ولكن حسبنا أن نُشير إلى مسألة مُهمّة في هذا البحث وهي العلاقة الوثيقة

بين ألفاظ اللّغة في الثقافة والمفهومات أو المعاني التي تعبّر عنها لنعرض في ما بعد أثر الدلالة في الثقافة، وأثر الثقافة في الدلالة اللّغويّة؛ وذلك لأنّ كلاً منهما يؤثّر في الآخر.

فلغة أيّ مجتمع إنسانيّ نظام من العلاقات التي تتكوّن من ألفاظ ومفهومات تربطها علاقة ائتلاف اصطلح عليها مستخدمو هذه اللّغة، فالألفاظ التي هي دوالّ توحي بالمدلولات التي هي المعاني أو المفهومات. والحقيقة أنّ هذه الألفاظ لا تنقل الشيء نفسه بل تنقل صورة الشيء،هذه الصّورة التي تتشكّل في الأذهان (بيار غيرو، ٣٨، ١١).

وقد وضّح "دي سوسير" ذلك إذ بيّن أنّ اللّغة مستودع من العلامات، وأنّ العلامة اللّغوية وحدة طبيعيّة ذات جانبين متّصلين غير منفصلين هما كالورقة لا يمكن أن نقطع وجهًا دون أن نقطع الآخر، هذان الجانبان هما: التصوّر الذهنيّ أو الصورة الذهنيّة، والصورة السّمعيّة.

الصورة الذهنيّة هي المدلول، والصورة السمعيّة هي الدّال، فالعلامة اللّغويّة ليست واحدًا منهما، إنّها كلاهما معًا. (عبده الراجحي، ٣١، ٦).

وتختلف هذه الصورة من مجتمع إلى آخر بحسب ما يحمل هذا المجتمع من ثقافة والتي هي ذلك "الكلّ المركّب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفنّ والأخلاق والقانون والعرف وكلّ المعتقداتوالعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع". (محمد عبدالعزيز، ٢٠٣، ٩)

ومثال ذلك أنّ كلمة "المرأة" مثلاً عندما تُطلق في مجتمع ما لا تدلُّ على الجنس الذي هو مقابل الذكر من حيث الشكل والخصائص، وإنّما تدلُّ على الصورة التي تشكّلت في أذهان أفراد هذا المجتمع لهذا الدالّ "المرأة" بحسب ثقافتهم، فالمرأة الهنديّة في المجتمعات البدائيّة كانت صاحبة سلطة، وأمّا في المجتمع اليونانيّ القديم فكانت مصدرًا للشرّ، وفي العصر الجاهليّ قبل الإسلام كانت في بعض المجتمعات العربيّة لدى القبائل باعثاً للعار والهوان، وهي في مجتمعاتنا المعاصرة صنو الرجل في كثير من شؤون الحياة الفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة وغير ذلك، لذا فإنّ كلمة "المرأة" تدلّ على مفهومات وصور ذهنية تختلف من مجتمع إلى مجتمع بحسب ثقافته.

ومثال آخر إنّ كلمة "يهوديّ" مثلاً عندما نسمعه نحن في مجتمعاتنا العربيّة لا تدلّ بالنسبة إلينا على أيّ معنى مرتبط بالشكل أو اللون أو الجنس، وإنّما أوّل ما يتبادل إلى فكرنا من معانٍ هي معاني العداوة والاغتصاب، والخيانة وغيرها من المعاني التي تُعبّر عن الصورة الذهنيّة المرتبطة عندنا بهذا الدال كلمة "يهوديّ"، بالمقابل لا تعني كلمة "Jewish" إذا سمعها الإنكليزيّ أو الأميركيّ هذه المعاني ألبتّة.

ومثال آخر يُبيّن اختلاف الصور الذهنيّة والمعاني والمفهومات بين ثقافة وأخرى "أنّ مصطلح "كلوريد الصوديوم" مصطلح دقيق في معناه يفهمه العلماء وفق خصائصه التركيبيّة لما يعكسه هذا المصطلح من ثقافة علماء الكيمياء في هذا الجانب، نفهمه نحن بما تعنيه كلمة ملح في حياتنا العاديّة حين نستخدمه في طعامنا". (محمد عبدالعزيز ١٤٢، ٩)

من هنا نستنتج أنّ ثمّة ارتباطاً وثيقاً بين ثقافة المجتمع ولغته، وهذا يدفعنا إلى التأكيد على أنّ أيّ تغيير في ثقافة مجتمع ما سيؤدي ذلك إلى تغيير في الدلالة اللّغويّة، وأيّ تغيير في الدلالة اللّغويّة سيؤدي إلى تغيّير في ثقافة المجتمع، وقد عرفت المجتمعات الإنسانيّة الكثير من أشكال التغيّر الدلاليّ للألفاظ بطريقة متعمّدة أو غير متعمّدة، وفقًا لما اعترى هذه المجتمعات من تغيّرات فكريّة، وعقائديّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة، وجغرافيّة، وغير ذلك ممّا يؤثّر في صورة المجتمع وثقافته.

الدلالة اللّغويّة والثقافة المعاصرة

إذا كان البشر كما يقول سابير "لا يعيشون في العالم الماديّ فحسب، ولا في عالم النشاط الاجتماعيّ بالمفهوم العاديّ، ولكنّهم في الواقع واقعون تحت رحمة تلك اللّغة المعنيّة التي اتّخذوها وسيلة للتفاهم في مجتمعهم، وحقيقة الأمر أنّ العالم الحقيقيّ مبنيّ إلى حدٍّ كبير على العادات اللّغويّة لمجتمع مُعين". (محمد عبدالعزيز، ٢٠٧، ٩)، وإذا كانت اللّغة كما يقول أيضًا "تتكوّن في العالم الخارجيّ لتُؤثّر بعد ذلك في الطريقة التي يتَصوّر بها المجتمعُ العالمَ الخارجيّ". (مصطفى غلفان، ٥٧، ١٠) ، فإنّ الإنسان العربيّ اليوم يواجه مشكلة تحوّل ثقافيّ لم تفرضه عليه أدوات العصر الحديث وتغيّراته فحسب، بل كان له إسهام هو نفسه في هذا التحوّل الثقافيّ؛ وذلك أنّ لغة الإنسان العربيّ المعاصر أصبحت مُهدّدة من جانبين أساسيين، ولا شكّ أنّ هذين الجانبين يؤثّران تأثيرًا شديدًا في الثقافة العربيّة المعاصرة التي

تُحدّد الأفكار وتصنع القرارات وتبني القناعات والتي كادت تكون مُغايرة للثقافة العربيّة الأصيلة؛ وذلك لأنّ الثقافة تؤثّر في اللّغة، واللّغة تعكس الثقافة وتوجهها. هذان الجانبان هما:

١- جانب التغيُّر الدلاليّ لكثير من الألفاظ التي ترتبط بالفكر والانتماء والعقيدة.

٢- جانب الاستبدال اللّغويّ المتمثّل باستعمال الألفاظ الأجنبيّة.

وإن كان الجانب الثاني يُعدُّ بالغ الأهميّة من حيث التأثير في الثقافة، فإنّ هذا البحث لن يتناوله بالوصف والتحليل بل سيقتصر على الجانب الأوّل؛ لأنَّ الحديث عن الاستبدال اللّغويّ المتمثّل باستعمال اللألفاظ الأجنبيّة يحتاج إلى معالجة بحثيّة خاصّة ومطوّلة.

١- جانب التغيُّر الدلاليّ

الحديث في هذا المجال في هذا البحث سيكون مقتصراً على جانب التغيّر الدلاليّ للألفاظ والمفردات دون غيرها من عناصر اللّغة الأخرى الصوتيّة، والصرفيّة، والنحويّة، ولا شكّ في أنّ ألفاظ أيّة لغة من اللّغات تنافي مبدأ الاستقرار، بمعنى عدم التغيّر؛ وذلك لأنّها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمجتمع والثقافة، وهذان في تغيّر مستمرّ، وقد أكّد اللّغويّ الفرنسيّ "فندريس" (١٩٦٠م) ذلك بقوله: "إنّ الحياة تشجّع على تغيّر المفردات؛ لأنّها تضاعف الأسباب التي تؤثّر في الكلمات، فالعلاقات الاجتماعيّة والصناعات وغير ذلك يعمل على تغيّر المفردات وتقضي على الكلمات القديمة أو تحوّر معناها وتتطلّب خلق كلمات جديدة" (أحمد قدّور، ٣٢٥، ١٢)

وعوامل التغيّر الدلاليّ إمّا أن تكون:

١- مقصودة متعمّدة، وهذا يكون من أعمال المجامع اللّغويّة، والمؤسسات المهتمّة باللّغة دراسة وتطويرًا حتّى تُجاري مقتضيات العصر مثلاً، وغالبًا يكون ذلك في الحياة الماديّة الصناعيّة والعلميّة وغير ذلك.

٢- غير مقصودة، وهذا يكون من إنتاج التطوّر الاجتماعيّ والثقافيّ للمجتمعات الإنسانيّة، وهذا ما يُهمّنا في هذا البحث.

ومن المعروف أنّ علماء اللّغة قديماً وحديثاً قد درسوا التغيّر الدلاليّ وأسبابه وعوامله، واتّفقوا على أنّ الألفاظ التي يصيب معناها التغيير تصير إلى ثلاثة:

أ- تخصيص دلالة اللّفظ: يدلُّ على تضييق دلالة اللّفظ، وهو إطلاق الكلمة ذات المعنى العامّ على معنى خاصّ يؤدي إلى انحصار دلالة اللّفظ، مثل كلمات الصلاة والصوم والحجّ الّتي خصّصها الدين الإسلاميّ بمعانٍ جديدة بعد أن كان لها دلالات أخرى قبل الإسلام، ومثل كلمة "مدرسة" كانت تطلق في القرن التاسع عشر في مصر على كلّ مؤسسات التّعليم، ثمّ تخصّصت بعد ذلك فأصبحت تطلق على مؤسسات التّعليم العام والمهنيّ أحيانًا، ولم تعد تُطلق على مؤسسات التعليم العالي". (محمود، حجازي، ١٣٨، ٣)

واليوم هناك كثير من الكلمات التي أصبحت مُخصّصة الدلالة، بحيث إذا أُطلقت أو سمعت أو استعملت أفادت دلالة مُخصّصة فرضتها ثقافة المجتمع، وعزّزت مفهومَها في الذهن عواملُ فكريّة، وسياسيّة، واجتماعيّة، ودينيّة، وغيرها كثير من العوامل التي تكوّن ثقافة مجتمعنا المعاصر مثل كلمات: "الصاحبة"، و"التعليم" و"النزوح" و"اللجوء" و"الثورة" "النظام"، و"الديمقراطيّة"، و"الإعلام"، و"التواصل"، وغيرها كثير من الألفاظ التي باتت اليوم تُعبّر عن معانٍ ضيّقة مخصوصة تحجب مدلولات أخرى كانت تدلُّ عليها هذه الألفاظ وغيرها، حتّى إنّ ذلك في بعض المجتمعات قد انسحب على "الألوان" التي باتت دلالاتها ترتبط بالأحزاب السياسيّة، والتيارات الفكريّة، أو الدينيّة، وبعضها انسحب على أسماء العلم لكثير من أعلام السياسة أو الفكر في عصرنا.

ب- تعميم دلالة اللّفظ: وهو عكس التعميم عن طريق إسقاط بعض الملامح التمييزيّة، فيزداد عدد ما تنطبق عليه الدلالة، كما يكون عن طريق إهمال "الفروق" التي نصّ عليها اللّغويّون وتجاوز شروط الدلالة، إضافة إلى دور أساليب الاختصار والتقريب والاقتصاد في إبراز هذا التغيُّر الذي تتسع فيه الدلالة أو يتعدّد ما ينطبق عليه". (أحمد قدّور، ٣٣٣، ١٢)، ومن أمثلة التعميم كلمة "البأس" كانت قديماً تدلُّ على الحرب، ثمَّ اتسعت دلالتُها فأصبحت تدلُّ على الشدّة في كلّ أمر، ومنها كلمة "الهدف" كانت تدلُّ على ما يُنصب ليرمى عليه، ثمّ اتّسعت دلالتها فأصبحت تدلُّ على كلّ مقصود ومرتجى.

واليوم هناك كثير من الكلمات التي باتت دلالاتها عامّة فرضتها ثقافة المجتمع، والعوامل المكوّنة لهذه الثقافة،

مثل ذلك: "المعارضة"، و"الحريّة الفكريّة"، و"الوصيّة"وغير ذلك.

ج- تغيير مجال استعمال اللّفظ: ويقوم ذلك على انتقال دلالة اللّفظ إلى دلالة جديدة، ولا تُعدُّ هذه الدلالة الجديدة أخصّ من الدلالة القديمة ولا أعمَّ منها، واللّفظ الذي ينقل من دلالة إلى أخرى يتوسّل بإحدى طريقتين هما الاستعارة التي تقوم على المشابهة بين المدلولين، وهو ما يطلق عليه "غيرو" مصطلح التسمية الإدركيّة؛ إذ لا يُقصد منها أي غرض فنّي مثل: "أسنان المنشار"، أو "عنق الزجاجة"، أو غير ذلك، "وأمّا الطريقة الثانية فهي المجاز المرسَل الذي يعتمد على مجموعة من العلاقات بين المدلولين كالمجاورة والسببيّة والجزئيّة والكليّة وغير ذلك، من ذلك مثلاً كلمتا "الهلال" و"الصليب" اللتان أصبحتا تشيران إلى الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة؛ لأنّهما شعاران مهمّان لهاتين الديانتين". (أحمد قدّور، ٣٣٦، ٣٧، ١٢)

ومن الكلمات التي تغيّرت دلالاتها اليوم وباتت تكوّن دلالاتها الجديدة جزءًا من الثقافة مثل: " الحضارة" و"الإرهاب"، و"السياسة" و"التحرّر" و"المقاومة" و"الخلافة" و "الدولة الإسلامية"، و"الجهاد" وغيرها كثير.

ولا شكّ أنّ هذا التغيير الذي طرأ على هذه الألفاظ في هذا العصر، قد انعكس على الاستعمال اللّغويّ نفسه لدى أهل اللغة؛ لأنَّ الثقافة المعاصرة باتت تفرض نفسها بقوّة، وتُسيطر على كثير من المواريث الثقافيّة التي كانت تُحدّد هُويّة العربيّ وفكره، ومعتقداته الدينيّة والانتمائيّة والسياسيّة وسلوكيّاته والاجتماعيّة والأخلاقيّة، ولاسيّما في هذه الظروف السياسيّة العالميّة، ولا شكّ في أنّ هذه الثقافة الجديدة التي باتت تأخذ مركزها في الفكر والسلوك والوجدان، وتُعبّر عن صورها المختلفة ألفاظُ اللّغة بما جرى عليها من تغيّرات تخصيصًا أو تعميمًا أو انتقالاً، لا شكّ أنّها أثّرت في الاستعمال اللّغويّ نفسه في أوضاع مُختلفة أرى أنّها تُحصر في هذه أربعة أوضاع:

أ- الإبراز اللّغويّ: وهو حدث مُتعمّد، للإعلام والأدب والفكر دورٌ واضحٌ فيه، وهو تكثيف استعمال هذه الألفاظ التي اتّخذت دلالات جديدة في شتى الوسائل الإعلاميّة المسموعة والمكتوبة والمقروءة في الأخبار والخطابات والمسلسلات والبرامج والإعلانات، أو في كتابات الأدباء والشعراء والمفكّرين لهدف تعزيز هذه الدلالات الجديدة التي من شأنها أن تُغيّر الصورة الذهنيّة التي كانت تدلُّ عليها هذه الألفاظ، وتستبدل بها صوراً ذهنيّة جديدة لدى الجمهور لهدف التأثير في ثقافته، وانتزاعها بقوّة، وتثبيت ثقافة جديدة مكانها، فأصبح "الحبّ" يدلُّ على الجنس، والخيانات الاجتماعية، وأصبح "التواصل الاجتماعيّ" لا يفهم إلاّ من خلال الآلات الميتة، وأصبح "التديّن" إرهابًا وتطرّفًا، وأصبحت "الثورة" لا يُرى منها إلا الدمّ والقتل، وأصبحت "الحضارة" لا تُرى إلا في جانبها الماديّ فقط، وغير ذلك ممّا لا يتّسع المقام لعرضه وسردته.

ب- القصور اللّغويّ: ويتمثّل في هروب كثير من الناس المثقّفين أو غير المثقّفين من استعمال ألفاظ معيّنة في كتاباتهم أو خطاباتهم أو تواصلهم اليوميّ؛ لأنّها أصبحت متى أطلقت تُكوّن صورة ذهنيّة لدى المتلقي والمخاطب لا يرغب المتكلّم باستحضارها في ذهن مخاطبِه؛ لأنّ هذه الألفاظ قد أخذت دلالات مُختلفة عمّا يجب أن تكون عليه، وأصبح لكثير منها أبعاد سياسيّة أو صبغات فكريّة أو توجّهات حزبيّة لا يرغب المتكلّم مُثقفًا كان أو عاميًّا من أن تكون هذه في عداد معجمه اللغويّ، فيتركها هارباً منها ومن مدلاولاتها إلى ألفاظ أخر يبحث عنها في مخزونه اللغويّ، ثُمّ لا يسعفه حقله المعجميّ ومخزونه اللّغويّ ذلك من استبدال ألفاظ أخر بتلك التي لم يعد يرغب في استعماله فينشأ عنده شيء من القصور اللّغويّ في التّعبير عن أفكاره.

ج- الحظر اللّغويّ: وهو ما يُعرف بـ"Taboo"، فترى كثيرين باتوا يهربون من استعمال ألفاظ كثيرة في استعمالهم اللغويّ؛ لأنّها باتت تُشكّل صورة ذهنيّة لا يرغبون بإحداثها في كلامهم، كأن نرى غياب الحقل المعجميّ الذي يستعمله حزب سياسيّ معيّن من خطاب حزب آخر لئلا تدلّ ألفاظ خطابه على ولاء أو تبنٍ أو موافقة، أو أن نرى انسحاب ألفاظ دينيّة قد صبغت بصبغ التطرّف من خطاب الوعّاظ والعلماء لئلا تكون حجّة عليهم في تأويل فكره.

ويختلف الحظر اللّغويّ عن القصور اللّغويّ من حيث إنّ من يهرب من استعمال هذه الألفاظ التي باتت

تأخذ دلالات جديدة فإنّه لا يرغب في استعمالها ولا يحتاج إلى ذلك؛ أمّا القصور اللّغويّ فينتج بسبب أنَّ المتكلّم يُحاول أن يهرب من استعمال هذه الألفاظ التي يرى أنّه لا بُدّ منها، فيُحاول استبدال غيرها بها فلا يُسعفه معجمه اللّغويّ.

وحسبنا في هذا المجال أن ندرس بعض الخطابات الدينيّة، أو الأعمال الأدبيّة، أو الاستعمالات اللغويّة الحيّة لشريحة معيّنة من الناس فنجد ذلك واضحاً في استعمالاتهم حيث غابت أو اختفت ألفاظ كثيرة كانت تظهر جليّة في الاستعمال قبل أن يفرض هذا المتكلّم على نفسه هذا الحظر اللغويّ، أو فلنقُل قبل أن تفرضه عليه قهراً هذه الثقافةُ المعاصرةُ.

د- الاتّساع الدلاليّ: وذلك ما يمكن أن يلحظ في الشعر والأدب الحديث، بحيث إنّ كثيرًا من الألفاظ التي اكتسبت دلالات جديدة اليوم باتت تُقدّم للشُّعراء والأدباء مادّة لغويّة وافرة، يمكن أن تكون رموزًا شعريّة، وصوراً تعبيريّة تحمل الكثير من المعاني والإيحاءات لم تكن تحملها من قبل، وهذا واضح وجليّ في الشعر والأدب منذ أن كتب الإنسان قصّة أو نظم قصيدة أو ألّف مقالاً، أو عبّر عن خفايا نفسه وطواياها. فليس غريباً أن نسمع ونقرأ عمّا قريب في أدبنا المعاصر هذه الألفاظ رموزاً تُحمل الكثير ممّا قد يخفيه قائلها، ولكنّها لسبب دلالاتها الجديدة أفصح وأبلغ.

الخاتمة

في ضوء ما سبق نستخلص أنّ للدلالة اللّغويّة تأثيرًا كبيرًا في تكوين ثقافتنا اليوم، هذه الثقافة التي تُحدّد الأفكار، وتصنع القرارات وتبني القناعات، هذه الثقافة التي تستمدّ صورتها الذهنيّة من دلالات الألفاظ، هذه الثقافة التي تكاد تكون مُغايرة لصورة الثقافة العربيّة الحقيقيّة في أذهان أبنائها المخضرمين الذين عاشوا ثقافة مختلفة في مفهوماتها الاجتماعيّة والعقديّة والفكريّة والسياسيّة والذوقيّة والفنيّة.

ولا شكّ أنّ هناك عوامل كثيرة تُسهم في تغيير هذه الثقافة لتُعبّر عن صورة مُشوّهة ومشوّشة للمجتمع العربيّ في أذهان أبنائه أوّلاً، وفي أذهان غيرهم ممّن يدرسون اللغة العربيّة ويتعرّضون إلى ألفاظها ودلالات هذه الألفاظ ، واللّغة أحد العوامل الأساسيّة التي تُسهم في ذلك؛ لأنّها تؤدي دوراً بارزاً ومُهمًّا في تجميع الثقافة وتخزينها في الأذهان والمؤلّفات والأعمال الفكريّة والفنيّة لتنقلها بعد ذلك إلى الأجيال المقبلة؛ لأنّ من صفات الثقافة أنّها مستمّرة فإنّ لسماتها قدرة هائلة على الانتقال عبر الزمن، وقد تنتقل من مجتمع إلى آخر، ولا شكّ أنّ للّغة قدرة على التعبير عن تلك الثقافة ما لا يملكها غيرُها ؛لأنّها كما يقول سابير دليل رمزيّ على الثقافة.

من هنا نجد أنفسنا أمام أسئلة كثيرة حري أن تثار، وهي تتعلّق باستشراف مستقبل مجتمعاتنا في ضوء هذا التغيّر الدلاليّ اللافت لكثير من الألفاظ اللغويّة التي يرادُ منها النيل من المجتمع العربيّ بصورة "إرهابيّة فكريّة". فأيّ ثقافة تحملها لغتنا إلى الأجيال القادمة؟ وأيّ ثقافة تحملها لغتنا إلى دارسي العربيّة من غير أبنائها؟ ومن المسؤول عن ضبط هذا السيل الجارف قبل أن يصل إلى ألفاظ من شأنها أن تبقى دلالتها ناصعة في أذهان أهلها؟

هذا وإنّ هذا البحث يفتح آفاقاً أمام الباحثين والدارسين أن يتناولوا موضوعات في علم الدلالة من شأنها أن تخدم المنهج الوصفيّ التطبيقيّ في دراسة اللغة نقترح منها:

- أثر الدلالات اللغويّة الحديثة في كتابات أحد الأدباء أو الشعراء أو الصحافيين.
- الحقل الدلاليّ في الخطابات الدينيّة أو السياسيّة أو الفكريّة المعاصرة ووظائفه.
- التغيّر الدلاليّ لكثير من الألفاظ العربيّة في ضوء التغيّرات السياسيّة أو الاجتماعيّة في المجتمع المعاصر.
- الألفاظ ودلالاتها المختلفة في المجتمع الواحد وأثر ذلك في ثقافة المجتمع.
- الحظر اللغويّ والثقافة العربيّة المعاصرة.

المراجع:

١- جاد الرب، محمود،(١٩٨٥) علم اللّغة نشأته وتطوّره، دار المعارف، مصر.

٢- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، (٢٠٠١)، الخصائص، تحقيق عبدالحميد الهنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت.

٣- حجازي، محمود، مدخل إلى علم اللّغة، دار قباء، القاهرة.

٤- خرما، نايف،(١٩٧٨)، أضواء على الدراسات اللّغويّة المعاصرة، عالم المعرفة.

٥- ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمّد،(٢٠١١)، مقدّمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصريّة، بيروت.

٦- الراجحي،عبده،(١٩٨٦)، النحو العربيّ والدرس الحديث، دار النهضة العربيّة، بيروت.

٧- زكريا، ميشال،(١٩٨٦)،الملكة اللسانيّة في مُقدّمة ابن خلدون، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر، بيروت.

٨- دي سوسير،(١٩٨٥)، علم اللغة العام، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربيّة، بغداد.

٩- عبدالعزيز، محمّد،(١٩٨٢)، مدخل إلى اللّغة، كليّة دار العلوم، جامعة القاهرة.

١٠- غلفان، مصطفى،(٢٠١٠) في اللسانيّات العامّة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ليبيا.

١١- غيرو، بيار،(١٩٨٦) علم الدلالة، ترجمة أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت.

١٢- قدّور، أحمد،(١٩٩٩)، مبادئ اللسانيّات، دار الفكر المعاصر، بيروت.